السلسلة: الظروف الماديّة والفكريّة للعلوم في المدينة الإسلاميّة

الفصل 1: العلمُ والفلسفة في العصر الهلنستيّ المتأخّر

المقال 2 | خرافة إحراق مكتبة الإسكندرية

"الخليفة أمر بحرق مكتبة الإسكندرية، وقال: إن كانت هذه الكتب توافق القرآن ففيه غنى عنها، وإن خالفته فلا حاجة لنا بها"...

كم مرة سمعتَ هذه القصة؟ في كتاب مدرسي، أو مقال، أو حتى في نقاش عابر يُستشهد فيه بها دليلًا على "عداء" الحضارة الإسلامية للعلم؟ المشكلة الوحيدة في هذه القصة الشهيرة هي أنّه لا سند تاريخي حقيقي لها.

حكاية بلا شهود معاصرين

الفتح العربي لمصر كان سنة 21هـ/642م. فمتى ظهرت أول رواية تتحدث عن إحراق عمرو بن العاص لمكتبة الإسكندرية بأمر من الخليفة عمر؟

الجواب المذهل: بعد الحدث المزعوم بما يقارب ستة قرون كاملة. فأقدم إشارة معروفة إلى هذه القصة وردت عند الطبيب والرحالة عبد اللطيف البغدادي (توفي 629هـ/1231م)، الذي ذكرها عرضًا في وصفه لزيارته مصر مطلع القرن السابع الهجري [1]، ثم عرضها بتفصيل أوسع المؤرخ ابن القفطي (توفي 646هـ/1248م) في كتابه "إخبار العلماء بأخبار الحكماء" [2] — وقد ختم روايته بعبارة تكشف شكّه فيها: "فاسمع هذه الحكاية واعجب!" [3] — قبل أن ينقلها عنه المؤرخ السرياني ابن العبري/بارهبرايوس (المتوفى 685هـ/1286م) في تاريخه، حاذفًا تحفّظ ابن القفطي، فصارت روايته هي المصدر الذي اعتمده أغلب المؤرخين الغربيين لاحقًا [4]. لا مؤرخ معاصر للفتح، لا مسلم ولا نصراني ولا يوناني، ذكر هذه الحادثة.

هذا ما يؤكده علماء تاريخ العلوم اليوم بوضوح: الادّعاء بأنّ العرب الفاتحين أحرقوا مكتبة الإسكندرية "خرافة لا أساس لها من الصحّة" [5].

فماذا حدث فعلًا لمكتبة الإسكندرية؟

الحقيقة أعقد وأقل إثارة من الأسطورة، لكنها أصدق:

- المكتبة الكبرى تضرّرت في حريق أثناء حرب يوليوس قيصر (عام 48 ق.م)، أي قبل الإسلام بنحو سبعة قرون [6]
- المعبد الملحق بها (السيرابيوم)، الذي كان يضم نسخًا من الكتب، دمّره حشد نصراني متعصب سنة 391م بأمر البطريرك ثيوفيلوس، قبل الإسلام بأكثر من قرنين ونصف [7]
- منذ ذلك الحين، وتحت الحكم البيزنطي، تراجعت الإسكندرية تدريجيًا كمركز علمي مستقل، وتحوّل النشاط الفكري فيها نحو الأغراض اللاهوتية.

بعبارة أخرى: حين وصل المسلمون إلى الإسكندرية، لم تكن هناك "مكتبة عظمى" بانتظار من يحرقها. القصة انتهت قبل وصولهم بزمن طويل.

من حافظ على هذا التراث إذن؟

هنا تكمن المفارقة الحقيقية التي تقلب السردية المعتادة رأسًا على عقب. لم يكن الفاتحون المسلمون هم من هدّد التراث اليوناني، بل كانوا -عبر وسطاء بارزين- من أنقذه من النسيان.

فالإرث الفكري الهلنستي انتقل عبر جسر من العلماء النصارى الشرقيين (السريان تحديدًا)، الذين كانوا قد نقلوا أعمال أرسطو وجالينوس وإقليدس إلى لغتهم قبل الإسلام بقرون، في مدارس مثل الرُّها ونصيبين وجنديسابور. وحين قامت الحضارة الإسلامية، كان هؤلاء أنفسهم -النصارى الشرقيون المشبَعون بالثقافة الهلنستية- هم حلقة الوصل التي نقلت هذا الإرث إلى العربية، عبر مترجمين كبار أمثال حنين بن إسحاق وثابت بن قرة.

فبدل أن تكون الحضارة الإسلامية "قاطعة طريق" أمام العلم اليوناني، كانت محطته الأخيرة الآمنة، التي حفظت فيها آلاف النصوص التي ضاعت أصولها اليونانية تمامًا، ولم تبقَ إلا في ترجماتها العربية.

لماذا صمدت الخرافة كل هذا الوقت؟

القصص البسيطة تنتشر أسرع من الحقائق المعقّدة. رواية "الخليفة المتعصب يحرق كنوز المعرفة بجملة واحدة" أكثر إثارة من حقيقة أن مؤسسة علمية تراجعت تدريجيًا على مدى قرون لأسباب سياسية واقتصادية ودينية متشابكة، سبقت الإسلام أصلًا. والخرافة، بمجرد أن تُروى بثقة، تكتسب سلطة تتجاوز أي تدقيق لاحق.

تصحيح هذا النوع من المفاهيم هو بالضبط ما تسعى إليه هذه السلسلة.

المصدر الأصلي: مقتبس ومُعَدّ عن فصل "العلم والفلسفة في العصر الهلنستي المتأخر"، بقلم غيرهارد إندرس (Gerhard Endress)، ضمن المجلد الثالث من موسوعة "تاريخ العلم"، الصادرة عن معهد الموسوعة الإيطالية (تريكاني) 2002، بإشراف رشدي راشد. وهو جزء من الموسوعة التي تُعِدّ دار الرّبّان للنشر حاليًا لترجمتها ونشرها بالعربية كاملة.

المصادر الإضافية (خارج نص الفصل)

[1] أشار عبد اللطيف البغدادي إلى الرواية عرضًا في كتابه "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" (كتبه بعد زيارته مصر مطلع القرن السابع الهجري)؛ نقلًا عن: Bernard Lewis, "The Vanished Library", The New York Review of Books, 27 September 1990.

[2] ابن القفطي، "إخبار العلماء بأخبار الحكماء" (المعروف اختصارًا بـ"تاريخ الحكماء")، تحقيق يوليوس ليبرت، ليبزغ 1903؛ نقلًا عن المرجع السابق (لويس 1990).

[3] المرجع نفسه (لويس 1990)، حيث يورد لويس عبارة ابن القفطي الختامية الدالة على شكّه في الرواية.

[4] المرجع نفسه؛ وانظر أيضًا: Roger Pearse, "Bar Hebraeus, Abd al-Latif, and the destruction of the library of Alexandria", roger-pearse.com, 11 September 2010 — وفيه تفصيل لكيفية نقل ابن العبري (بارهبرايوس) رواية ابن القفطي في تاريخه "مختصر تاريخ الدول" دون تحفظه عليها.

[5] نص الفصل الأول من الموسوعة (إندرس).

[6] Plutarch, Life of Caesar, 49؛ و Cassius Dio, Roman History, 42.38 — عن الحريق الذي أصاب مخازن قرب الميناء أثناء حرب يوليوس قيصر في الإسكندرية عام 48 ق.م.

[7] Socrates Scholasticus, Historia Ecclesiastica (التاريخ الكنسي)، الكتاب الخامس، الفصل 16 — عن هدم السيرابيوم بأمر البطريرك ثيوفيلوس سنة 391م.

خرافة إحراق مكتبة الإسكندرية

https://arsco.org/comm/comm/2

https://arsco.org/